والوصف ، حتى ليأسى المرء على أن لم يول العرب هذه المناحي من القول اهتماماً أكثر مما أولوها . وسينية البحتري مَثلٌ شرود من أمثلة الشعور الصادق والعاطفة الانسانية والروح الفنيــة في الأدب العربي ؛ وأعجب من تفردها في الأدب العربي صدورُها عن البحتري الذي سخَّر بيانه للمدح والهجاء . وقد كان نقاد العرب يطربون لهــذه الأشعار الفنية الجميلة ، البعيدة عن آثار المدح والهجاء والنسيب المتكلف ، فقد أعجب الجاحظ وغيره بسينيتي البحتري وأبي نواس سالفتي الذكر ، وعدوهما من ذخائر الشعر العربي ، ولكن دواعي مثل هذا النظم كانت نادرة ، وتيار محاكاة السابقين كان يدفع الأدباء في غير هذا الاتجاه

فالأمتان العربية والانجليزية تتفقان في ظهور الأدب فيهما على سائر الفنون واجتــذابه أغلب نوابغهما ، واشتهارهما بالسبق فيه بين الأمم ، فان الانجليز وإن جاروا الأوربيين في مجالات النحت والتصوير لم يبلغوا شأوهم كما بلغوا الشأو والغاية في صناعتي الشعر والنثر ، ولم ينجبوا من أعلام النحت والتصوير من توازي مكانته العالمية مكانة شكسبير وملتون وبيرون ؛ ولكن تفترق الأمتان في أنه بينما مارس الانجليز الفنون الأخرى وهاموا بها ومجدوا آثار الأمم الأخرى فيها أهمل العرب الفنون الأخرى إهمالاً يكاد يكون تاما ، فلم تجتذب اهتمام نوابغهم ومثقفيهم ، وظل ما عرفوه منها أدنى إلى الصناعات منه إلى الفنون ، وظل الأديب — ولا سيما الشعر — يشغل في عالم الفن والوجدان مكاناً عالياً وسلطة مطلقة فردية بين العرب ، كسلطة الخلفاء والأمراء المستبدة في عالم السياسة ، متوحداً بالافصاح عن أفكارهم مستأثراً برعايتهم وإجلالهم

وقد خسر الأدب العربي بتفرده هذا الشيء الكثير ، لأن الفن الواحد لا ينمو خير نموه بعزلتــه ، بل بمواصلته الفنون الأخرى ؛ خسر ما كان ينتظر أن تمده به تلك الفنون من إلهامات ومنادح للقول ، وما كان ينتظر أن تبثه في رجاله من فهم دقيق للفن وسمو غايته وتعاليه عن المــادة وبُعد مراميه ، وما توحيه إليهم من وسائل للتعبير والتصوير والملاءمة بين المعنى واللفظ ، وجعل الأخير دائماً خادما للأول . وبالجملة خسر الأدب معاونة الفنون التي استأثر بالمكانة دونها ، كما خسر مساعدة الآداب الأجنبية التي ترفَّع عنها

فخري أبو السعود

صـــــديق !

للأستاذ علي الطنطاوي

أستأذن أستاذنا المازني فأستعير منه تلك الكليشيه المهورة التي كان يصدر بها مقالات ذات الثوب الأرجواني ، لأقول : إن المقالة خيالية لا حقيقية ، وأؤكد هــذا للقراء !

(علي)

قال :

... لا أدري كيف عرفته ، ولا أعلم السبيل التي دخل منها إلى قلبي ؛ فاحتل فيه هذه المنزلة ، ولم أنتبه له إلا وهو ملء سمعي وبصري وعقلي ...

وإنني لأعرفه منذ عشرين يوما ، ولكني أحاول عبثاً حين أحاول ادكار بدايتي معه ، لأنه عماد حياتي ؛ لا أستطيع أن أتصور لصلتي به بداية ؛ عرفته يوم عرفت الدنيا ؛ لم أجهله قط ولم أنفرد عنه ساعة ؛ وهو دنياي ، إن لقيته لقيت الحياة ، وإن نأى عني وجدت كل شيء في الحياة ميتا

ولست أدري أي صلة هذه ، ولاأعرف لها تحديداً مضبوطاً ، ولكن الذي أدريه وأعرفه أنه ليس له في أعماق قلبي إلا الصداقة . إنني لم أنظر إلا إلى روحه ، بل أنا لا أقدر أبداً أن أتخيله بشراً من لحم ودم . إنني أراه فكرة سامية ، صورة شعرية بارعة ، معنى من المعاني العبقرية ... إنني أراه وحده معنى كلمة الوجود ... لقد ضاعت معه حدود شخصيتي ، وعميت معالمها ، فلم أعد أعرف أين أنتهي (أنا) ، وأين يبدأ (هو) ، وامتزجت نفسي بنفســه ، فكأني (أنا من أهوى ومن أهوى أنا . . .) ، وكدت أقول بالحلول ، وأرتكب هذه الحماقة الكبرى ، التي لا يقول بها ذو عقل . . . حين رأيتني أضحك إذا سر (هو) ، وأحزن إذا تألم ، وأشبع إذا أكل ، وإذا أصابه الصُّداع وجعني رأسه ؛ وإذا رأى (هو) حلماً هنيئاً تبسمت وأنا غارقٌ في مناي ، أجد اللذة الكبرى في رفاهيته وراحته ، وآلم لشقائه أكثر مما آلم لشقائي ، وأريد أن أمنحه صحتي وحياتي وكل ما أملك ؛ أريد أن أفنى فيه ولا أجد في شيء من ذلك عملاً كبيراً ، ولا أحس أني مقدم على تضحية ، لأنه اندمج في أعمق عاطفة من عواطفي ، فنزل إلى

أبعد غور من نفسي ، وسيطر على قواي كلها ، فلم يبق لي عاطفة مستقلة أو حاسة حرة أفكر بها فيه ، وأزن صلتي به . . .

* * *

اختلف نظري الى الحياة ، وتبدلت المشاهد في عيني ، وكأن الدنيا كانت في ظلام ، حتى طلع في سمائها بدراً منيراً فأصبحت أرى كل شيء جميلاً في بصري : هذا السطح المشرف على الفضاء الرحيب ، سطح دارنا في «الأعظمية» ، وهذا النخيل الممتد الى غير ما نهاية ، وبغداد التي تلوح منائرها وقبابها كأنها معلقة في السماء حيال الأفق ، ودجلة التي تبدو من خلال الأغصان لامعة كصفحة المرآة المجلوة تشق عبابها الزوارق ، تتمايل شُرُعها البيض مع نسيم المساء الناعش الخفيف ، والبدر الذي طلع من الشرق يبدو منه حاجب ويختفي حاجب وراء نقاب من الغيوم ... وهذا الطريق الذي لم تمتد اليه يد الحكومة بالتعبيد تبقى على فطرته وجماله لم تشوهه كفّ الانسان ، يظهر تارة ، ويلتوي تارات ، ويضيع بين النخيل ويضل الطريق ... والفلاحين الذين يرجعون إلى دورهم حين تعود الشمس الى خدرها ، ويزدحمون على هذا الطريق الشعري الضيق ، هم ودوابهم ومواشيهم تطنطن الأجراس في أعناقها والقطمان يسوقها الرعاة الذين تنكبوا عصيهم ثم ساروا وراءها يزمرون أو يغنون ، وهؤلاء الأطفال من تلاميذ المدارس الذين يلعبون في هذه الرحبة ، يتقاذفون الكرة يتصايحون ويترا كضون ، فاذا أمسك أحدهم بها ضربها برجله فانطلقت تشق الفضاء كأنها القنبلة ، ووقف الصبية صامتين قد علقوا أنفاسهم وتبعتها عيونهم ، تبصر مسيرها ، فاذا هبطت واستقرت على الأرض عادوا يركضون ويصيحون

أصبحت أرى كل شيء جميلاً في عيني حبيباً إليّ : الفلاحين الآوين الى بيوتهم ، والأطفال العاكفين على كرتهم ، والدواب والمواشي ... وأسمع في كل صوت أغنية عذبة ، أسمعها في حفيف الأوراق ، وزقزقة العصافير ، ونباح الكلاب ، ودوي الرعد ... وأرى الجمال في ظلام الليل الدامس ، كما أراه في صفحة البدر المنير ، وأبصره في الصحراء المقفرة ، كما أبصره في الروضة المزهرة ، وأسمعه في صفير الرياح المرعب ، كما أسمعه في تغريد البلبل المطرب ، وألمسه في الخريف كما ألمسه في الربيع ؛ بل إني لأعجب من هؤلاء النظامين المتشاعرين الذين يسميهم الناس شعراء ، كيف يعمون عن صفحة الكون ، ثم يذهبون فيحدّقون في صفحات الكتب ، وينظرون فيها بالمجهر : هؤلاء المقلدين الذين يظنون أن الخريف معناه الوحشة أبداً والموت والكآبة ، وأن معنى الربيع الأنس دائماً والبهجة والسرور ، كأن العواطف البشرية تسير على التقويم الفلكي ، وتدور مع الأيام ... فليس على الشاعر إلا أن ينظر في التقويم حتى يرى أيوم حزن هو ، أم يوم سرور ؟! وكأن في وجه الأديب زجاجتي فوتوغراف لا تريان إلا ما في الوجود ، لا عيني إنسان يحس ويشعر

أين إذن عاطفة الشاعر ؟ وهل ترى الشاعر الحزين اليائس ربيعاً مشرقاً جميلاً ؟ ألا يرى في الربيع الوحشة والكآبة والحزن ؟ وهل يشعر المسلول القانط بجمال الزهر ؟ والشاعر الفرح ؟ ألا يرى في الشتاء وفي الخريف جمالاً وبهجة ، ويبصر فيهما وروداً وزهرا ؟

إن في شعر هؤلاء المتشاعرين المقلدين كل شيء إلا الحياة ، إلا العاطفة ، إلا الروح . هو شعر ميت ، تمثال حسناء ، ولكنه من الشمع !

* * *

لقد ظهر هذا الصديق فجأة في طريق ، فملك عليّ أسري ، وأخذ بيدي فسلك بي طريقاً جديدة ، حتى نأى بي عن الناس فأصبحت لا أرى في الدنيا غيره ، ولا أبصر سواه ، وصبّ في نفسي عزيمة وقوة ، فأحسست بالنشاط في جسمي وروحي ، ودفعني إلى أداء الواجب علي ، فوفّيته على وجهه ، وساقني في سبيل الاستقامة والشرف ، ونحا بي عن (الأنانية) والاستئثار فأضحيت أشفق حتى على أعدائي المخاصمين ، وأعطف حتى على المجرمين والساقطين ؛ وفتح لي مغاليق هذا الكون ، فاذا وراء هذه المظاهر دنيا من الجمال والجلال والسحر والفتون ، وإذا حيال هذه الدنيا دنيا أكبر ، وأحفل بالكائنات ، هي في نفسي ، فرأيت وأبصرت ونعمت وانتفعت ...

* * *

لقد دفعتني هذه الصداقة إلى الصلة بربي ، والقيام بواجبي ، والتفاني بأهلي ، فلست أريد بعدها شيئاً ، فخذوا الدنيا كلها ، حسبي أني أخذت منها صديقاً

(بغداد) علي الطنطاوي